نـافـذة

الحاجة إلى الغير

في الزمن الراهن، مسألة التعامل مع الذات ربما يصح إدراجها بين الاهتمامات الإنسانية – الإنسانية، وذلك من منطلق واقع التعامل بين صاحب هذه الذات وتلك وبين المحيطين به، وذلك بحكم الحاجة إلى الغير بشكل أو بآخر. وبطبيعة الحال فإن معادلة كهذه، كي تستقيم وتأخذ أبعادها في الحياة بين الناس، لا بد من توافر مستلزماتها، وبالدرجة الأولى من تلك المستلزمات الثقة بالنفس. وأقول بالثقة لأنها البداية لاختيار الدرب الخالي من الحفر وبالتالي للوصول إلى الآخر بشفافية وبصفاء بعيداً عن أي غرض شخصي. من هنا المطالبة بأن يتعرف الإنسان إلى ذاته قبل أن يسعى للتعرف إلى من حوله، لأنه بمثل هذه المعرفة فقط يتخطى أناه الضيقة ليكون جزءاً من كل لا كلا من كل فيضل السبيل إلى هدفه.

في الزمن الراهن، مسألة التعامل مع الذات باتت مطروحة من باب تغليب الأنانية على الغيرية، وذلك بسبب من فقدان الثقة وانطواء المرء على ذاته، خلافاً لقاعدة التواصل بين الناس خدمة للمصلحة العامة. وهذا ما تبينه تبعات الوضع الذي لحق بسورية منذ خمس سنوات ولا يزال.

إن الحرب التي شنت على سورية ومستمرة إلى اليوم، أفرزت العديد من الأمراض التي لها علاقة بحب الذات، لأن المصالح الشخصية غلبت المصالح العامة، وبات الإنسان أسير ذاته ومن ثم تخلى عن ذوات سواه وكاد لا يعلم أين هو من الآخر وأين الآخر منه. وهذه المعادلة من نتائج الحرب التي يعاني أبناء وطننا من وطأة تداعياتها، وربما سيبقى يعاني منها إلى زمن ما بعد انتهاء زمن الحرب.

في السياق المتصل تستدعي الحاجة إلى ترميم القناعات المغلوطة التي أفرزتها فترة الحرب ببذل أقصى ما يمكن من جهود تشترك فيها المؤسسات المعنية كافة، بدءاً بالتربية انتهاء بالإعلام، مروراً بالجمعيات المدنية التي ازدهرت في أرجاء وطننا في الفترة الأخيرة على وجه التحديد.

إن إعادة اللحمة إلى الذات التي فقدت شيئاً من مكوناتها الاجتماعية، ضرورة ملحة في سياق ما نحتاجه لتجاوز تبعات الأزمة التي يمر بها وطننا، ولأن في عودة الثقة إلى الذات سبيل تلاقيها مع الذوات الأخرى، وتحديداً في زمن استعادة زمام الأمور على أرض المعركة، معركتنا مع أعداء الحياة أكلة لحوم البشر وأكبادهم.

وبمقدار ما تتسارع الخطا لتدارك مساوئ اتساع المسافات بين أبناء الوطن الواحد، نفسيا واجتماعياً، تكون قد توضح الرؤية أمامنا.

يقول الكاتب والشاعر الفرنسي جان ماري بواربيه [١٨٧١– ١٩٢٣]: عندما ينطوي المرء على ذاته، فإنه يتعرض كثيراً لعدم رؤيته إلى أين يمضي.

وحتى نتجنب الضياع ونحن على الدرب مفيد أن نعلم من نحن ومن الذين حولنا ومعنا.

د. اسكندر لوقا

هزوان الوز يشرّح الانهيار القيمي في (سرير من الوهم)

المخدرات وتجارة الرقيق والسلب سمات المجتمعات التي تنهار!

إسماعيل مروة

«تمتمت: كأنما وضع الشعب في سفينة تغرق، وبدأ كل واحد يبحث عن سبيل للنجاة، بعض ممن لا يجيدون السباحة رمى بنفسه إلى المياه، وآخرون يجمعون ما استطاعوا من غنائم قبل رمي أنفسهم، وقسم ثالث يتحرك في أرجاء السفينة وهو على يقين بأنه قادر على صنع المعجزة وإنقاذها، والقسم الرابع والأكبر يجلس خائفاً ساكناً يتضرع إلى الله كي يعين القبطان على إنقاذ السفينة، ومتابعة الرحلة للوصول إلى الجنات التي يحلمون بها» ص ١٨٣

مقطع معبر ومؤثر وموح من رواية د. هزوان الوز (سرير من الوهم) الصادرة عن دار الفارابي بيروت في طبعتها الثانية منذ شهر، ولا يكتمل المشهد إلا إذا علمنا أن الرواية طبعت أول مرة عام ٢٠٠٠ قبل ستة عشر عاماً، وربما كان هذا المقطع المؤثر وأشباهه وراء إعادة طبع الرواية مجدداً.

هزوان الوز

الاستلهام والعودة إلى الموروث

اخترت هذا المقطع لما فيه من استلهام للنص القرآني، وصورة السفينة، وما دار من حوار بين موسى والخضر، فغوربتشوف قد يكون فعل في منظومة الاتحاد السوفييتي آنذاك ما يفعله خارق السفينة ليغرق أهلها، والتناص بين القصتين مهم للغاية، وإن كان الروائي قد استلهم المشهد من دون الدخول في التفاصيل الخاصة بالنص والعبرة لمشهدية شاهدها وعاصرها في انهيار الاتحاد السوفييتي بذريعة البيروسترويكا، وصنع مشهديته الخاصة بتقسيم الناس إلى أربعة أنواع، أحدها ذهب غرقاً، والآخر يمارس اللصوصية، والثالث يملك اليقين، والرابع يتعلق بحبال الألم والأمل! وهذه الصورة على ما فيها لم نكن لنتأثر بها لولا ما يجري اليوم على الأرض السورية من حرب شعواء، ولم نكن لنتخيلها، وخاصة أن بعض الرفاق الشيوعيين من العرب لم يأخذوا من تلك التجربة إلا شتم غورباتشوف وكيل التهم والإدانات له، وهو مدان، ولكن الروائي الذي درس في الاتحاد السوفييتي وأحبه قدّم الرؤية الأعمق التي تجذر الفساد فيها فمكنت من الوصول إلى مرحلة التحول والتفكك والبيروسترويكا، إضافة إلى تشريح مرحلة التحول نفسها وما رافقها من الداخل.. ومع أن الرواية صدرت عام ٢٠٠٠ إلا أنه على ما يبدو لم تنل حظها من الاهتمام الذي يجعلنا ندرس التحولات الكبرى، والاستعداد الكافي لها.

> انتهاك ما قبل وانتهاك ما بعد حامل القيم في الرواية

هزار وأولغا

شخصيتان نسائيتان رسمهما الروائي بإتقان إحداهما في دمشق هزار، والثانية أولغا في الاتحاد السوفييتي، عاش حياته مع الأولى، ولكن معالم حياتها منعتهما من الاقتران، يشتاق إليها ولا يجدها، وتشتاق إليه ولا تسعى إلى لقائه، وحين يصبح اللقاء محالاً تبدأ مراسلاتها على شكل رسائل تستعيد الألق، وتبث الشوق، وتمثل الحيادية والقبول، والثانية تعمل محققة في مدينة غير التي يسكنها، يلتقيان، يعيشان معاً، وما رفضه من هزار قبله مع أولغا، ويأتي صادق من أولغا، وحين تصبح أولغا قادرة على نطق اسمه أحمد بشكل صحيح، تنتشر العصابات والمافيات في الاتحاد السوفييتي كنتيجة طبيعية للفوضى والبيروسترويكا، وتنتهي أولغا التي تحاول الوصول إلى الحقائق وتتبعها نتيجة مهنتها نهاية مأساوية، مقتولة بعد أن انتهك جسدها، ومثّل بها.. وما بينهما كان الصراع الذي يكشفه الروائي، فهزار نتيجة الفساد تنتهك من ابن أحد المسؤولين الذي يرسله أبوه إلى الخارج ليتخلص من ممارساته وتبعاتها، وتبقى هزار لتدفع ثمن هذا الفساد، وأولغا تدفع ذلك الثمن نتيجة طبيعية للفساد والمافيات التي تفشت بالفوضى.. وفي الوقت الذي تنتهي فيه أولغا، تصل رسالة هزار التي تنبئ باختيارها نهايتها وقد يئست من البقاء، واختارت سمّ الفئران لتنهي رحلة مضنية عاشتها بين واقع وما تريد، بعد أن تتسلل الأحداث التي تسردها الرسائل إلى أخت أحمد وأسرته حباً به، وحباً بكل ما يمت إليه بصلة.

الفساد والفوضى

يقدم الروائي من خلال معاينته ومعاشرته ودراسته هناك نماذج للفساد، نسمع ببعضها، ولكن الأغلب لا نعرف تفاصيله، وأغلب ما نسمعه يرد على أنه اتهامات، لكن الكاتب بتجربته قدم نماذج عدة تستحق الوقوف عندها، وخاصة في مراحل إعادة بناء المجتمعات، التي تشكل معاول هدم فيها إن لم يتم التنبه إليها:

■ إنجاز المشروعات العلمية من جهات محددة مقابل مبالغ مالية، ودون أن يكون للطالب أي إسهام فيها، ولو رغب الطالب في أن يقدم جهده يجد عوائق من أجل الحصول على العوائد من إنجاز العمل نيابة عنه.

■ الفساد الأكاديمي الذي تمثل في عدد من الأساتذة الذين يفرضون على طلابهم الموفدين مبالغ يتم اقتطاعها من منحاتهم التعليمية مقابل مساعدتهم وإنجاز معاملاتهم والموافقة على أبحاثهم.

– تعامل المجتمعات في الاتحاد السوفييتي مع الطلبة العرب عامة على أنهم أبناء المجتمع النفطي الغني، وبأنه عليهم أن يدفعوا مما يتقاضونه، وهو كثير حسب رأيهم لهم، ولا يميز أحدهم بين طالب وآخر والبلد الذي جاء منه.

■ عمل عدد من الطلبة غير قليل في التجارة أو تصريف العملات في تلك الحقبة، إذ لم يعد الطالب معنياً بالعلم والتعليم، وهذه الصورة صارت معروفة لدى المجتمع السوفييتي، ويتعامل مع الطالب وفقها.

هذه الممارسات وسواها لم تكن لتصل إلى المستوى الروائي لولا مرحلة البيروسترويكا وغورباتشوف التي جعلت هذه الممارسات طافية على السطح وطبيعية، وإن كان كل واحد يطلب عدم الحديث فيها أمام الآخرين!!

الفوضى والعصابات

تشهد مراحل التحول في المجتمعات تغيرات خطرة على مستوى المجتمعات، ورواية (سرير من الوهم) تقدم صورة معايش لمجتمع كان منضبطاً إلى درجة قصوى، ولكن هذا الانضباط القسري انهار أمام الدولار وسطوته وإغرائه، وظهرت أمراض الأفراد التي تمثلت في شخصيات انتهازية تأخذ الامتيازات لنفسها وللمحيطين بها مثل الشقق وتأجيرها والاحتفاظ بالأفضل للمتنفذين، والقدرة على ممارسة أي شيء، والحصول على كل شيء بالمقابل المادي، وقد جاء في مفاصل عديدة على المشروبات والسجائر والدولارات وسواها.. وهذا الفساد أدى إلى ظهور المافيات والعصابات التي تنقلها الرواية بصدق وتأثير يغير من محور الرواية:

■ تجارة المخدرات وانهيار المنظومة القيمية.

■ تجارة الرقيق والدعارة، التي لم تعد تجارة اختيارية في ظل الفوضى، بل صارت تجارة إجبارية تقع تحتها الفتيات، سواء كن ممن امتهنت إحداهن الدعارة، أم لم تكن، وتخضع الواحدة لسلب ما جنته وربما قتلها، لأن تجارة الدعارة في الفوضى خضعت إلى مفهوم الشبكات والعصابات، وهذا ما تتعرض له إحداهن وهي تهرب من مكان إلى آخر والعصابات تطاردها، وهذه العصابات هي من المتنفذين والمسؤولين الذين تحول دورهم إلى المتاجرة بكل شيء.

■ السيطرة من عصابات المسؤولين والمتنفذين على مقدرات الأحداث والناس وإخفاء الحقائق من خلال ممارسة القتل، وهذا ما تعرضت له أولغا وهي المحققة وابنة الاتحاد السوفييتي عندما أرادت كشف الحقائق وممارسة دورها في التحقيقات، فكانت النتيجة العثور عليها مغتصبة منهكة، والحقيقة ترافقها وكأنها تمثل منظومة البلد المنتهك المغتصب! (سرير من الوهم) رواية عن المجتمع الذي كان، وتحول بلحظة من زمن إلى مجتمع منتهك تسيطر عليه العصابات والمافيات، وتحدث فيه كل أنواع التجارة الممنوعة التي تستلب الإنسان حقه في الحياة، من مجتمع منضبط ينادي بحق الإنسان إلى مجتمع لا يترك للإنسان شيئاً، وهذه الرواية التي كتبها معاصر معايش لما جرى من الممكن أن تعطينا رواسم المرحلة المقبلة في كل مجتمع تحل فيه الفوضى العارمة.. وكما بدأت فإن هذه الرواية تكتسب أهميتها في هذه الطبعة من أنها تصدر وسورية لا تزال تقاوم في وجه التحول إلى مجتمع مماثل، فهل نقرأ ونستفيد؟!

ماما.. حكاية مع المرض.. الأمل.. الموت

عندما تتغلب العاطفة على كل شيء.. يصبح المستحيل ممكناً

| ديالا غنطوس

عندما تتغلب العاطفة على الجسد، وعندما تتجبر الروح على المرض، وعندما تكابر المرأة على آلام الحياة ومعاناتها لأجل الولد، تكون أماً بكل التفاصيل الحاضرة والغائبة، نزعة للحياة تتملكها ورغبة بالبقاء تتمسك بها، لا لأجلها بل لأجل فلذات أكبادها، لأجل أحبائها، تكون أماً بألف جسد، وألف قلبٍ يحبُّ بكل طهرِ الكون ونقائه.

إن دور الأم وكفاحها من أجل أبنائها وأسرتها وتعدد قصص تفاني وبذل الأمهات المنتشرة في كل الأزمنة والأمكنة كان كفيلاً بإلهام صناع السينما العالمية على اختلاف جنسياتها لتقديم بعض من تلك القصص بقالب سينمائي يمنحها حقها بالانتشار ويمنح الجمهور فرصة التعرف على ما تحمله من معانٍ سامية ومؤثرة تلامس القلوب.

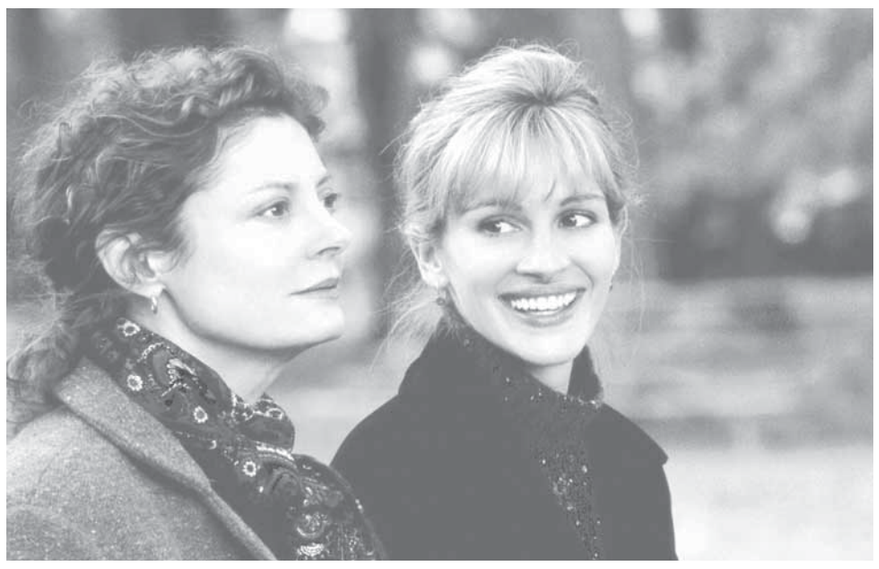

وأستذكر هنا أحد تلك الأفلام الذي ترك بصمة خاصة في قلبي، وهو الفيلم الإسباني ماما أو (Ma Ma) من إنتاج عام ٢٠١٥، فعلى الرغم من مأساوية القضية التي يطرحها الفيلم إلا أنه يضم خليطاً من البهجة والأمل ليكونا رفيقي رحلة الأسى التي تعانيها «ماجدة» والتي أدت فيها الممثلة المتألقة «بينيلوبي كروز» دور البطولة مجسدة دور الأم في رحلة معاناتها مع مرض سرطان الثدي، الذي تنتصر عليه بإحدى جولاته، قبل أن يعود ويقتلها لاحقاً، ماجدة أم لفتى في مقتبل العمر «داني»، هجرها زوجها الأكاديمي «راؤول» بسبب علاقة غرامية مع إحدى طالباته دفعته للتخلي عن أسرته، ابنها داني يهوى كرة القدم، وتأتي فرصته بعد أن تعرفت والدته أثناء حضورها إحدى مبارياته على رجل يعمل كمكتشف للمواهب في ناد شهير، يدعى «أرتورو» ليكون داني مشروعه الرياضي الخلاق القادم، لكن سعادتها لم تكتمل، إذ يتلقى أرتورو نبأ وقوع حادث اصطدام سيارة أسفر عن مقتل ابنته ودخول زوجته بغيبوبة، ترافق ماجدة الرجل المذهول إلى المستشفى، وتواصل زيارته بعد جلسات العلاج الإشعاعي التي تخضع لها، تنشأ علاقة صداقة بين ماجدة وأرتورو، تتوطد وتتعمق بعد وفاة زوجته، حيث يتبادلان الدعم النفسي والعاطفي سعياً منهما لتجاوز محنتيهما، يغمر الحب حياة ماجدة من قبل ثلاثة رجال يطوفون حولها، (أحدهم زوجها راؤول الذي عاد نادماً على فعلته)، وكذلك طبيبها المعالج جوليان، وهو الطبيب الذي يكرس كل وقته واهتمامه لمرضاه، وعلى وجه الخصوص مريضته المميزة ماجدة، حتى إنه كان يغني لها أغاني الحب بانتظام، يخبرها جوليان أنه يجب استئصال نصف ثديها، وتخضع ماجدة للعملية التي تكللت بالنجاح، ويزف لها الطبيب الخبر السعيد بأنها شفيت تماماً من المرض.

لكن الصدمة التالية كانت بعودة الخلايا السرطانية لاحقاً وانتشارها في الجزء الآخر من صدرها، وانعدام إمكانية العلاج في هذه الحالة، وخصوصاً أن ذلك مترافق هذه المرة مع كونها حاملاً من أرتورو، تصر ماجدة على الإنجاب متمنية أن ترزق بفتاة تسميها ناتاشا، فتخوض رحلة جديدة من الصعوبات متحلية بقدر عالٍ من التحدي والتصميم والقوة الداخلية وكلها أمل أن تشفيها ابنتها من الداخل، أعطاها الطبيب جوليان مدة ٦ أشهر متبقية لها في الحياة، لكن عزمها وقوة إرادتها مكناها من إطالة المدة حتى ٨ أشهر، مؤدية بذلك مهمتها على أكمل وجه حيث أوصلت طفلتها إلى بر الأمان، وبمجرد ولادة ناتاشا توقف قلب ماجدة عن الخفقان، وانتقل النبض من جسد لجسد ليحيي قلب طفلتها، ورحلت تاركة ابنها وابنتها بأمان لدى أرتورو وجوليان.

على القدر نفسه من سمو الأم وعظَمة شأنها وتأثيرها العميق، نطالع قصة فيلم «فورست غامب Forrest Gump» للنجم القدير توم هانكس، الذي يروي قصة الطفل فورست غامب الذي يعاني من بطء في الفهم والإدراك، على الرغم من قوته البدنية، يضطر فورست لارتداء دعامات حديدية في قدميه تمكنه من السير وهو صغير، وهو ما جعله محط سخرية وقسوة الأطفال المحيطين به، فيتعرض للمضايقات ويلجأ للجري هرباً منهم، نرى والدته المجهدة بإدارة منزلها الكبير الذي يضم غرفاً كثيرة فارغة تؤجرها للمسافرين وعابري السبيل بهدف تأمين المال اللازم لرعاية ابنها، احتوت ابنها بعاطفتها وتصرفت مع حالته بذكاء مع رفضها إدخاله مدرسة لذوي الاحتياجات الخاصة لحرصها عليه، فتعاملت معه كإنسان طبيعي تماما ما استدعى منها جهداً مضاعفاً، فابتكرت تعبيرات خاصة تستخدمها لتوضيح الأمور له، وساعدها صبر الأم على شرح الحياة لابنها ذي القدرات المحدودة بأسلوب مبسط يستطيع فهمه، فكان لها تأثير عميق في تكوين أفكاره وتطوير مداركه من خلال دعمها المطلق له وإيمانها به من دون أي يأس أو كلل أو استسلام، وبوصوله إلى مرحلة الشباب يتسلم فورست دفة إدارة حياته من والدته، وبعد أن نمت موهبته في الجري يلتحق بالخدمة العسكرية في الجيش الأميركي، وخلال الحرب في فييتنام يتمكن من إنقاذ العديد من الجنود، ويشعر بالفخر حين يتم تكريمه بميدالية الشرف من الرئيس الأميركي، وبعد انقضاء فترة خدمته وعودته للوطن يختتم الفيلم بمشهد يجمع بين فورست وابنه بانتظار سيارة المدرسة، يجلس الأب فورست أسفل إحدى الأشجار التي جلست عليها والدته يوماً ما أثناء مرافقتها له في يومه الأول بالمدرسة، مستذكراً تلك المرأة الأم الحنون التي جعلت منه رجلاً من أفضل الرجال.

أما الفيلم الذي تطرق لحالة فيها شيء من الغرابة كان فيلم «زوجة الأب Stepmom» بطولة المبدعة جوليا روبرتس، حيث تتعرض أسرة هاريسون المكونة من الأب والأم لوك وجاكي وابنتهما وطفلهما لهزة حين يقرر الزوجان الانفصال بعد إخفاق محاولاتهما لحل الخلافات بينهما، بهدف الحفاظ على ما تبقى من ود واحترام أمام طفليهما، بعد الطلاق يتزوج الأب بالفتاة التي أحبها «إيزابيل» التي تصغره بعشرات السنوات، لم تتصور إيزابيل نفسها في موقع يفرض عليها رعاية الطفلين وتربيتهما، وهو الأمر الذي عانت منه في الفترة القصيرة التي قضاها معها الطفلان قبل عودتهما لأمهما، إلا أنها تكتشف مصادفة ما تخفيه الزوجة الأولى جاكي حول إصابتها بالسرطان في مراحله المتأخرة وأنها على وشك الرحيل خلال أسابيع معدودة، تجد جاكي نفسها مجبرة على طلب العون فيما يخص أولادها من شخص تثق فيه، فلا تجد سوى إيزابيل، التي لم تردها خائبة على الرغم من ترددها، تتعامل إيزابيل مع الأبناء كصديقة وليس كأم، ما يدفع جاكي لاتخاذ قرار شجاع وأليم في ذات الوقت وهو أن تسمح لإيزابيل بالانخراط بالعائلة بشكل واضح، وذلك بسبب خوفها من رحيلها الوشيك قبل أن تنظم أمور أطفالها، فتقوم بمصارحة طليقها وإيزابيل، كما تشرح الأمر للطفلين في مشهد مؤلم يحمل الكثير من المعاني الإنسانية وفيضاً من المشاعر العميقة، حيث تقوم الأم مرغمة بوضع أطفالها عهدة لدى غيرها، ليس لشيء سوى أنها تترقب لحظة رحيلها، فتسعى بذكاء لضمان الاستقرار والأمان لأطفالها، مستبقة الحدث الأليم بتجميل صورة الأب وزوجته الجديدة بنظر أطفالها، ونراها تقدم لهما هدية تذكارية وداعية تحوي كل الذكريات التي جمعتها بهما في حياتها، معلنة استمرارية بقائها بالروح حتى بعد رحيل الجسد، وتؤكد أن الأم حالة استثنائية لا تتكرر.

> دور الأم وكفاحها من أجل أبنائها وأسرتها كان كفيلاً بإلهام صناع السينما العالمية